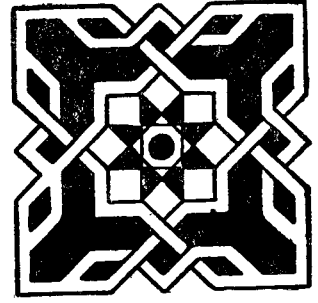


القسم الأول



المبحث الأول : مفاهيم الإسلام حول الوجود والإنسان



إن النظرة إلى الكون ، وتحديد صلة هذا الكون بالكائن الحى وعلاقته بالوجود المادى المحيط به وببقية الكائنات ، تشكل فى مجموعها سلوك ومنهج الإنسان وفلسفته وعلاقته بالآخرين . كما أنها تحدد قوالب ونوعية نظمته الاجتماعية والاقتصادية . ومن هنا فان إعطاء فكرة سريعة عن مفهوم الاسلام تجاه الكون وتجاه الفرد وعلاقته كمخلوق ببقية هذه المخلوقات ، سوف يسهل على القارئ فهم فكرة الاسلام ومفهومه حول نظام الخدمة العامة وطبيعتها وما يتعلق بذلك من مباحث .

إن الإسلام يمتلك مفهوماً واضحاً ومحددأ لعلاقة كل من الانسان بالوجود الكلى ، فنظرة الاسلام حول الألوهية تقوم على قاعدة العبودية لله ؛ التى تركز بدورها على الايمان المطلق المتمثل فى التزام الفرد سلوكاً بموجب مقتضيات أوامر الله ونواهيه . ويتمثل مفهوم العبودية فى الركن الأول من أركان الاسلام وهو شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله؛ التى بمقتضاها يلتزم الفرد المسلم فى المجتمع المسلم بالتصور الاعتقادى وبالشعائر التعبدية والشرائع القانونية التى سنّها الله فى كتابه أو أمر بها رسوله ؛ فليس مسلماً حقاً ولا محققاً لمفهوم العبودية من لا يؤمن

بوحداية الله . « وقال الله لا تتخذوا إلهين اثنين إنما هو إله واحد فإياي فارهبون . وله ما في السموات والأرض وله الدين واصباً أفخبر الله تتقون » (٥١ - ٥٢ النحل) .

كما أنه ليس محققاً للعبودية من يتقدم بالشعائر التعبدية لأحد غير الله معه أو من دونه « قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين . لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين » (١٦٢ - ١٦٣ الأنعام) . إن العبودية لا تكتمل في مفهومها إلا بإيمان الفرد بادراك أن مصدر التلقى في كيفية هذه العبودية يأتي عن طريق رسول الله ؛ « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » (٧ - الحشر) . ويلقى الشهيد سيد قطب رحمه الله حول هذا المفهوم في كتابه (معالم في الطريق) (١) فيقول : « التصور الاعتقادي الإسلامي هو التصور الذي ينشأ في الإدراك البشري من تلقيه لحقائق العقيدة من مصدرها الرباني ؛ والذي يكشف به الإنسان في إدراكه لحقيقة ربه ولحقيقة الكون الذي يعيش فيه - غيبه وشهوده - وحقيقة الحياة التي ينتسب إليها غيبها وشهودها ، ولحقيقة نفسه ولحقيقة الإنسان ذاته . ثم يكيف على أساسه تعامله مع هذه الحقائق جميعاً ، تعامله مع ربه تعاملًا تتمثل فيه عبوديته لله وحده ، وتعامله مع الكون ونواميسه ومع الأحياء وعوالمها ومع أفراد النوع البشري وتشكيلاته » .

والتصور الإسلامي تجاه الوجود يقوم على أساس أن هذا الوجود كله من خلق الله حيث اتجهت إرادة الله إلى خلقه فكان بموجب النواميس والقوانين التي يتحرك بها والتي وضعها الله بتناسق تتحرك بها أجزاءه فيما بينها كما تناسق بها حركته الكلية ، كما أشارت إليها الآياتان « إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون » (٤٠ - النحل) وقوله « وخلق كل شيء فقدره تقديراً » (٢ - الفرقان) .

وينتج عن هذا التصور إدراك أن وراء هذا الوجود مشيئة تديره وقدرًا يحركه وقدرة تنسق ما بين أجزائه فتتظم حركاتها جميعاً فلا تصطدم ولا

تخل ولا تتعارض ولا تتوقف عن الحركة المنتظمة المستمرة إلى ما شاء الله .
فالوجود خاضع ومستسلم لهذه المشيئة التي تديره والقدر الذي يحركه ، وتؤكد
هذه المعانى الآية الكريمة « إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض
فى ستة أيام ثم استوى على العرش يغشى الليل النهار يطلبه حثيثا والشمس
والقمر والنجوم مسخرات بأمره ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب
العالمين » - (٥٤ - الأعراف) .

والإسلام يعتبر الإنسان جزءاً من هذا الوجود ، والقوانين التي
تحكم فطرته ليست بمعزل عن تلك القوانين التي تحكم الوجود كله ، فالله
قد خلق الإنسان كما خلق الوجود ، والإنسان مكون فى أصل مادته
من طين هذه الأرض ، ويختلف عن مادة الطين بامتياز به خصائص جعلت
منه إنساناً مع خضوعه من ناحية كيانه الجسمى للقانون الطبيعى الذى
سنه الله رضى بهذا القانون أم لم يرض ، فهو مثلاً قد أعطى وجوده
وخلقه ابتداءً بمشيئة الله لا بمشيئته هو ولا بمشيئة أبيه وأمه ، فهما
يلتقيان ولكنهما لا يملكان أن يعطيا جنيئاً ، كما أن مولده يخضع
للقانون الذى وضعه الله لمدة الحمل وظروف الولادة ، كما يستفيد مما
فى هذا الوجود من هواء يتنفسه بالقدر وبالكمية التي أرادها الله له .

ونلاحظ هنا أن الإسلام يؤكد على فكرة التلازم ما بين القوانين
والأنظمة وبين الوجود كله ، فالله الذى أخضع الكون لقانونه الذى
أوجده بما فيه الإنسان ، أوجد شريعة ونظاماً لهذا الإنسان لتنظيم حياته
الإرادية تنظيمًا يتناسق مع حياته فوق هذه الأرض . فالشريعة وما
تحتويه من نظم ما هى إلا جزء من القانون الإلهى العام الذى يحكم فطرة
الإنسان والوجود العام وينسقها كلها فى إطار العبودية الواحدة لله .
ويقول المرحوم سيد قطب فى هذا المعنى (٢) « إن الشريعة التي سنها
الله لتنظيم حياة البشر هى من ثم شريعة كونية ، بمعنى أنها متصلة
بناموس الكون العام ومتناسقة معه ، ومن ثم فإن الالتزام بها ناشئ
من ضرورة تحقيق التناسق بين حياة الإنسان وحركة الكون الذى

يعيش فيه ، بل من ضرورة تحقيق التناسق بين القوانين التى تحكم فطرة البشر المضمرة والقوانين التى تحكم حياتهم الظاهرة وضرورة الالتئام بين الشخصية المضمرة والشخصية الظاهرة للإنسان .

وقصة إبراهيم عليه السلام مع النمرود ، الذى ادعى حق السلطان كما وردت فى القرآن الكريم ، تشير إلى معنى التلازم بين الوجود كله « ألم تر إلى الذى حجاج إبراهيم فى ربه أن آتاه الله الملك إذ قال إبراهيم ربي الذى يحيى ويميت قال أنا أحيى وأميت قال إبراهيم فان الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذى كفر والله لا يهدى القوم الظالمين » (٢٥٨ - البقرة) . والمنطق الذى استخدمه إبراهيم عليه السلام والذى هو منطق الإسلام يقوم على فكرة أن من يدعى حق السلطان على الفلك والأجرام فى الكون هو وحده الذى ينبغى أن يكون له السلطان على حياة البشر بما فى ذلك سلوكهم ، وأن السلطان على حياة الإنسان المعاشية لا يعطى الحق فى الاستعباد .

ولا شك أن أى تصور يمتلكه الفرد حول الوجود يؤثر على مفاهيمه حول العلائق الاجتماعية والاقتصادية . فالمجتمع المالحد الذى ينكر وجود الله أصلاً ويرجع حركة الكون إلى المصادرة أو الطبيعة يؤثر ذلك فى نظريته إلى المؤثر فى حياة الإنسان وتاريخه ، ومن هنا تراه يرجع المؤثر إلى العوامل الاقتصادية وأدوات الإنتاج . كما أن النظام السياسى يتأثر بذلك فيجعل العبودية فيه للحزب على أساس أن القيادة الجماعية حقيقة واقعة مما يترتب على هذا التصور من إهدار لخصائص الإنسان كما فى النظام الشيوعى ، وذلك باعتبار أن الحاجات الأساسية للإنسان هى فقط مطالب الجسد : الطعام والملبس والسكن والجنس . وحرمانه من حاجاته الروحية المتمثلة فى العقيدة بالله وحرية اختيارها وحرية التعبير عنها ، وكذلك حرية التعبير عن فرديته وهى من أخص خصائص إنسانيته التى تتجلى فى الملكية الفردية وفى اختيار نوع العمل والتخصص والتعبير عن الذات .

« حينما تلتبس مفاهيمه ويختلط الإلحاد بالعبودية للأشياء أو الأفراد كما في النظام الرأسمالي الذي يعطى الفرد حريته المطلقة فيمتلك ما يشاء ويعمل ما يشاء فلا قيود على حركته فتبرز الأنانية والطبقية مما يؤثر على أنظمتها الاجتماعية والسياسية ؛ وتاريخ أوروبا منذ العصور الوسطى حتى العصر الحاضر شاهد على ما اقترف من جرائم في حق الإنسان ودليل على مدى تأثير عدم تقييم حرية الفرد .

أما الإسلام فهو يحدد الغاية من الوجود ، وبالتالي يوجد التوازن بين الفرد والوجود باعتبار أن الفرد هو جزء من الكون ، ولذا نلاحظ في كثير من الآيات القرآنية هذا الربط والإيحاء للفرد المسلم بذلك « وهو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء ليبلوكم أيكم أحسن عملاً » (٧ - هود) « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون » (٥٦ - الذاريات) « الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً » (٢ - الملك) .

ويوضح الأستاذ علال الفاسي هذا الترابط بقوله (٣) « لقد جعل سبحانه العباد حكمة الإيجاد للإنسان ، ولكن العباد لا تعنى الانقطاع عن العمل والتجرد عن الدنيا مما يتنافى مع رسالته في تعمير الأرض ونشر الحكم الإلهي عليها طبقاً لنواميس الله ومقاصده الشرعية . والإنسان يكلف قبل كل شيء بأن يتعلم هذه النواميس والأحكام » .

والإسلام يجعل العلاقة بين الإنسان والله تقوم على فكرة الأزلية ، أي أزلية علاقة الإنسان بالله ، فمذ أراد الله خلق الكون نادى في الأزل في أرواح البشرية كلها وعرض عليها أمانة التكليف والعبودية فاعترفت بألوهيته ووجوب عبادته ، ويحكي القرآن في الآية الكريمة « ألسن بربكم ؟ قالوا بلى شهدنا ، أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين » (١٧٢ - الأعراف) ونتيجة لهذا الاعتراف منح الله الإنسان الأرض لتكون مقراً لخليقته عليها ، كما أوجد فيه

القدرة على عمارتها « هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها » (٦١ - هود)
 « وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إني أعلم ما لا تعلمون . وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين . قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم . قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم »
 (٣٠ - ٣١ - ٣٢ البقرة) .

إن النتيجة الحتمية لهذا التصور العام هي أن الإسلام يمتلك تصوراً مستقلاً للوجود والحياة ذا خصائص متميزة ينبثق عنه منهج ذاتي مستقل للحياة ونظمها، فالؤمن لا يستمد قيمه وتصوراته ومفاهيمه من الناس ولكنه يستمدّها من شريعة الله لتنظيم الحياة البشرية سواء ما يتعلق بأصول الاعتقاد أو أصول الحكم أو أصول الأخلاق أو أصول السلوك ، فمن نتائج هذا التصور أن الفرد المسلم لا يحتقر المادة في أصلها النظرى على اعتبار أن الكون يتألف منها وهو يعيش في هذا الكون الذى يتأثر به ويؤثر فيه كما هو حاصل في الإنتاج المادى . فالإنتاج المادى من مقومات الخلافة عن الله في الأرض ولكنه، أى الإنتاج ، لا يعتبر هو القيمة العليا التى تهدر في سبيلها خصائص الإنسان ومقوماته ، ولذا فإن الفرد المسلم يسعى إلى العمل على عمارة الأرض وحفظ نظام التعايش فيها واستمرار صلاحيتها .

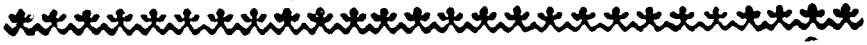
ويوضح هذا المعنى الأستاذ أبو الأعلى المودودى في كتابه (نظام الحياة في الإسلام) (٤) : « نجد في نظرة الإسلام للكون والإنسان أن القوة الوازنة التى لا بد لقانون الأخلاق أن يكون مستنداً إليها، هى قوة خشية الرب تعالى والإشفاق من المسؤولية الأخروية والخوف من سوء العاقبة في المستقبل السرمدى ، ولا ريب أن الإسلام يريد أن يوجد ويهيئ من الهيئة الاجتماعية والرأى العام ما يحمل الأفراد والطبقات ويجبرهم على القيام بالقواعد الخلقية والدأب عليها » .

٤ - نظام الحياة في الإسلام - أبو الأعلى المودودى - دار الفكر الإسلامى - دمشق

. ١٩٥٨

إن موظف الخدمة المدنية المسلم والملتزم بهذا التصور سوف يخلق لديه الالتزام الفكري والانضباط السلوكي ، فهذا التصور سيكون الحارس على ضمان العدالة ونشر الحق وعدم الإخلال بحقوق الآخرين والمحافظة على حقوق الدولة بدون إضاعة حقوق الأفراد أو إضعافها .

المبحث الثاني : وظيفة الدولة في الشريعة الإسلامية



تمهيد :

قبل التحدث عن وظيفة وطبيعة الدولة حسب النظرية الإسلامية وواجباتها ومسئولياتها لابد من تحديد مفهوم الدولة نفسه .

يقول ابن خلدون في مقدمته حين تكلم عن رئاسة الدولة أنها تنوع في ثلاثة أشكال : إما ملك طبعى وهو حمل الكافة على مقتضى الفرض والشهوة . وإما ملك سياسى وهو حمل الكافة على مقتضى النظر العقلى فى جلب المصالح الدنيوية ودفع المضار . وإما خلافة وهى حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعى ، ومن هذه التسميات لطبيعة الدولة بوجه عام نلاحظ أن عناصر الدولة تتوافر فى هذه الأشكال والأنماط من الحكومة إلى شعب يخضع لنظام ويسكن رقعة من الأرض مع حتمية السلطة على هذا الشعب مع تأثير هذه السلطة بالمصدر التشريعى الذى تصدر عنه مهما تعددت التسميات التى تطلق على الدولة .

طبيعة الدولة فى الإسلام :

من مميزات الشريعة الإسلامية شمولها وتعدد الجوانب التى تعالجها فيما يتعلق بشئون الحياة ، والقارئ للقرآن والسنة يرى اتساع نطاق شمول الشريعة ، فهى تعالج أحكام العبادات والأخلاق والعقائد والمعاملات الحياتية سواء بين الأفراد أو الجماعات . وهذا الاتساع أدى إلى معالجة الإسلام لشئون الدولة ونظام الحكم فيها كمبدأ الشورى ومسئولية الحكم .